

اللغة العربية واللغات البديلة

فى المدرسة المصرية
للأستاذ / عبد العزيز النعمانى

● مقدمة :

إن تاريخ اللغة العربية طويل ، تمتد بداياته بتكوينها فى إطار اللغات الأفروآسيوية و ويمضى تاريخها من الجاهلية إلى عصر الحضارة الإسلامية ، لتحتل مركز الصدارة بين لغات الحضارة لعدة قرون . وكان على هذه اللغة أن تعبر عن قضايا الحضارة الحديثة خصوصاً بعد موجة الانحسار التى أصابتها ، إلى أن تبوأ مكانها ومكانتها بين أهم اللغات فى عالمنا المعاصر .

ولقد كان ظهور الإسلام ، وما أعقب الفتوح الإسلامية فى منطقة واسعة من العالم القديم أهم الأحداث التى نقلت اللغة العربية من مجالها البدوى المحدود فى شمالى الجزيرة العربية لتصبح - مع مرور الوقت - أهم لغات الحضارة فى العصور الوسطى ^(١) لقد خططت المدن التى أقام بها العرب بحيث يكون لهم تجمع فى جانب من المدينة يقيمون به ، الأمر الذى أدى إلى عدم ذوبان الوافدين العرب فى السكان الأصليين ، حفاظاً على نقاء لغتهم وصفاتها . وهكذا بقيت العربية ذات مكانة مرموقة فى تلك المجتمعات ، تمثل سمة الانتماء إلى الطبقة العليا ، على مدى أجيال. ولتأخذ مثلاً على ذلك ما كان من شأن المجتمعات التى ضمتها الدولة فى العصر الأموى ، حيث كان التحدث بغير العربية سمة الانتماء إلى إحدى الطبقتين الوسطى أو الدنيا ، لأن هاتين الطبقتين ظلتا مرتبطتين - إن قليلاً أو كثيراً - باللغات التى سادت تلك الأقاليم قبل الحكم الإسلامى بها .

كما كانت العربية أيضاً لغة الإبداع الفنى المعترف به من الدوائر الحاكمة ، والطبقات العليا ، فقد عرفت الأمصار الجديدة نشاطاً شعرياً متنوع الجوانب . كما عرفت الجماعات الأخرى أفراداً كثيرين دفعهم نزوعهم الفنى إلى تعلم العربية لكى

(١) ارجع إلى (دائرة المعارف الإسلامية) الطبعة الجديدة .

ينظموا بها شعراً يفيدهم فى حياتهم الشخصية ، فيرجع شأنهم ومكانتهم . فهذا هو الشاعر « زياد الأعجم » كما يبدو ومن اسمه من أصل غير عربى ، تعلم العربية وأجادها حتى إن « سيبويه » لم يجد غضاضة فى الاستشهاد بأبيات من شعره .

أردت بهذا التمهيد أن أشير إلى شئ هام ، هو أن ثمة عوامل تضافرت لتجعل اللغة العربية موضع اهتمام الجماعات المختلفة فى الدولة العربية الإسلامية ، حتى حدث التعريب شيئاً فشيئاً ، لأن التحول اللغوى سواء كان فى لغة الحديث أم فى لغة الكتابة لا يتم فى جيل واحد ، بل يمتد إلى أكثر من جيل .

اللغة العربية لغة عالمية :

كانت اللغة العربية إبان فترة الازدهار الحضارى العربى الإسلامى لغة عالمية ، استوعبت كل مجالات المعرفة المختلفة . ألفت بها مؤلفون من جماعات لغوية مختلفة ، فكانت الوسيلة المشتركة للتعبير عندهم جميعاً . فالتراث العربى ثمرة جهود مؤلفين ينتمون إلى مناطق كانت ذات لغات محلية ، إلا أن هذه اللغات المحلية أوقفت دورانها على الحياة اليومية ، وظلت اللغة العربية لغة العلم والثقافة بلا مناس . كان « ابن سينا » فى منطقة تشيع فيها التركية والإيرانية ، ويرجع نسب الفارابى إلى الأتراك ، كما أن ابن خلدون عاش فترة من حياته فى بيئة لغوية عربية بربرية . إلا أن هؤلاء جميعاً فكروا باللغة العربية وألفوا بها .

ولقد كان من أهم العوامل التى أعاققت سيادة العربية فى المجال الحضارى ظهور دول حاكمة فى شرقى الدولة الإسلامية تعترف بالعربية فى إطار الدراسات الدينية فقط ، ودول إسلامية أخرى فى غربى الدولة الإسلامية تضع العربية فى هذا الموضع الدينى .

لقد ظل الأزهر الشريف خلال الفترة العثمانية المنارة الهادية إلى الطريق السوى فى ظلمات حالكة السواد . إلا أن ظهور المدارس الحديثة فى عصر محمد على وتخرجها موظفين لتطوير البلاد ، وتكوين الجيش جعل الأزهر يمثل ارتباط الجماهير بالدين ، إذ إن العمل فى أجهزة الدولة لم يكن بحاجة إلى الشروح والمخلصات اللغوية

لقد مثل الأزهر فى هذه الفترة الكفاح الجماهيرى من أجل البقاء اللغوى العربى ، المظهر الأصيل لوجود هذه الأمة ، فكان أن ارتبطت اللغة العربية بالطبقات غير الحاكمة ، وارتبطت دراسة الفصحى فى الوجدان الشعبى بالدراسات الدينية خصوصاً وأن اللغة التركية فى ذلك الوقت - كانت لغة الحاكمين .

لقد كانت بداية النهضة الحديثة فى مصر فى عهد محمد على ، ثم ما كان من محاكاة للتجربة المصرية فى تونس فى عهد أحمد بالى (١٨٣٧ - ١٨٥٥) وكانت هاتان التجريتان من بواكير اللقاء العربى بالحضارة الحديثة ، والعلم الحديث . وظهرت مع هذا اللقاء مشكلة التعبير باللغة العربية عن العلم الوافد من الحضارة الأوربية .

إن المدارس التقليدية مثل الأزهر فى مصر والقرويين والزيتونة فى تونس والمدارس المماثلة لم تكن تواجه مشكلة لغوية ، لأن المواد الدراسية كانت تدرس بالعربية من خلال كتب أدت دورها استناداً إلى تراث ممتد فى التاريخ الحضارى العربى ، كما كانت المصطلحات معروفة متداولة آنذاك .

★ القضية اللغوية :

وهذه القضية اللغوية من جانب آخر لم تكن تهم المدارس الأوربية والأمريكية التى انتشرت فى مصر وتونس والمغرب ، وزادت زيادة ملحوظة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، لأن هذه المدارس كانت تدرس كل موادها باللغة الأجنبية ، وكانت اللغة العربية لا تدرس على الإطلاق . أو تدرس على أنها إحدى المواد . وشتان بين أن تكون العربية لغة التدريس وأن تكون مجرد مادة دراسية .

لقد أنشأ الأوربيون من فرنسيين وإيطاليين وروس وأمريكيين هذه المدارس ، وكان الهدف التبشيرى واضحاً فيها . ولم تكن أكثر هذه المدارس تواجه قضية التعبير بالعربية عن العلم الحديث ، إلا عندما حاولت هذه المدارس فى لبنان القضاء على مكانة اللغة التركية - اللغة الرسمية فى الدولة العثمانية ، وذلك بتشجيع التدريس باللغة العربية . فلقد كان هذا الجهد محدوداً فى لبنان ؛ لأن المدارس الأجنبية فيها وفى مصر وتونس والجزائر والمغرب تنأى جانباً عن التعبير بالعربية عن الحضارة

الحديثة (١) . وكان اهتمام محمد على بالإفادة من الخبرة الأوروبية والخبرة الفرنسية بصفة خاصة لبناء الدولة الحديثة فى مجال التعليم ، فقد كانت صورة الحملة الفرنسية بجيشها فى علمائها ما تزال ماثلة فى الوجدان المصرى . فأنشأ محمد على عددا من المدارس العليا فى إطار الجيش .. مكتب المهندسخانة سنة ١٨١٥ ، مدرسة الكيمياء ١٨٣١ ، مدرسة المعادن ١٨٣٤ ، مدرسة الفنون والصنائع ١٨٣٧ . كما أنشئت فى ذلك العهد مدارس متخصصة فى مجال الطب والخدمات الطبية (مدرسة الطب البشرى ١٨٢٧ ، مدرسة الطب البيطرى ١٨٢٨ ، مدرسة الصيدلة ١٨٣٠ ، مدرسة الولادة ١٨٣٢) وكانت القضية للغربة فى هذه المدارس الحديثة قضية التدريس باللغة العربية . لقد كان الأساتذة بهذه المدارس لا يعرفون العربية ، ولذا كانت الاستعانة بمترجم إلى اللغة العربية من المصريين ، الذين أُلقت بهم الظروف فى البيئة اللغوية الفرنسية ، ومن ثم أفادوا فى الاشتغال كمترجمين فيما بعد ، ساعدوا مع مدرسة الألسن فى تعريب المصطلحات العلمية - مما شجع على ظهور عديد من الكتب المترجمة إلى العربية فى كثير من العلوم .

وبالرغم من أن هذه المرحلة قد مكنت اللغة العربية من ولوج المجالات العلمية الجديدة ، إلا أن الحياة اللغوية ظلت تعاني من قضية انتشار الأمية ، حيث إن قضية ديمقراطية الثقافة أو ديمقراطية التعليم لم تكن مطروحة فى تلك الفترة .

وفى عهد اسماعيل كانت العناية باللغة العربية ، فقد أعيدت المدارس العليا التى أغلقها عباس ، وأصبحت « مدرسة الإدارة والألسن » مركزا للدراسات الحديثة فى اللغات والقانون والاقتصاد . كما أنشئت إلى جانب ذلك عدة مدارس كان أبرزها مدرسة دار العلوم العليا سنة ١٨٧٢ التى أصبحت فيما بعد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة حالياً . حيث تكفلت بتخريج مدرّس اللغة العربية الذى يدرس العلوم الحديثة وبرامج التدريس ، فكانت بهذا أول معهد عال لتخريج مدرّس اللغة العربية فى العالم العربى الحديث (٢) .

(١) انظر « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها » القاهرة ١٩٦١ .

(٢) انظر « عبد الرحمن الرافعى .. عصر اسماعيل » القاهرة ١٩٤٨ .

لقد اتخذت المدارس العليا فى عهد اسماعيل لأول مرة فى التاريخ العربى الحديث الطابع المدنى ، بعد أن كانت من قبل عسكرية تابعة للجيش ، ولقد كان فى مقابل هذه المحاولة المصرية الناهضة محاولة تونسية فى عهد (أحمدباى ١٨٣٧ - ١٨٥٥) ثم فى وزارة خير الدين التونسي (١٨٧٣ - ١٨٧٧) (١) .

الصراع من أجل الفصحى :

ثمة صراع من أجل سيادة اللغة العربية الفصحى فى مختلف الأقطار العربية منذ الاحتلال الإنجليزى لمصر ١٨٨١ والاحتلال الفرنسى لتونس سنة ١٨٨٢ وكانت الجزائر قد احتلت من قبل سنة ١٨٣٠ . ولقد اتخذ هذا الصراع جانبين : (أ) صراع من أجل اللغة العربية فى المناطق الخاضعة للنفوذ العثمانى المباشر . (ب) صراع من أجل العربية الفصحى فى البلاد الخاضعة لنفوذ الاستعمار الأوروبى وذلك فى مواجهة الدعوة إلى العامية والتجزئية . ونركز هنا على السياسة التى اتخذتها بريطانيا تجاه اللغة العربية فى مصر بعد الاحتلال سنة ١٨٨١ حيث توجهت هذه السياسة نحو التجزئية (٢) ، عبر خطة تدعو إلى هجر الكتابة بالفصحى ، واللجوء إلى العامية . وكانت بداية هذه الدعوة (١٨٩٢ - ١٨٩٣) على يد مهندس الرى البريطانى « وليام كوكس » فى محاضراته المشهورة التى نشرت بمجلة الأزهر فبراير سنة ١٨٩٣ . وتجدر الإشارة هنا إلى جهد هذا المهندس فى التناول اللغوى لدرأيته خطورة الفصحى على الوجود الأجنبى ، بينما لو سألت أحد مهندسينا لقال لك : « مالنا وللفصحى » لأنه لا يدرك أنها وجوده وكيانه وقدره فى المنظومة الدولية !!!! . وتجددت هذه الدعوة على يدى القاضى « ويلمور » حيث دعا أبناء مصر للكتابة العامية وإعلانها لغة رسمية فى مصر ، مع كتابتها بالحروف اللاتينية سنة ١٩٠١ . وللأسف تجددت هذه

(١) انظر .. مقدمة المنصف الشنوفى لكتاب « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » تأليف خير الدين التونسي (الدار التونسية للنشر ١٩٧٢) .
(٢) انظر مجلة المجلة - القاهرة - يونيو ١٩٦٦ مقال بعنوان « اتجاهات المستشرقين فى دراسة الحياة اللغوية فى العصر الحديث » د . محمود فهمى حجازى .

الدعوة على يد واحد من أبناء مصر ^(١) بحجة أن الفصحى صعبة ، وغير قادرة على التعبير عن الحضارة الحديثة . إلا أن هذه الدعوة لقيت معارضة شديدة ، فقد وقفت الصحف العربية تدافع عن الفصحى باعتبارها لغة وجود وكيان وتاريخ وحضارة ممتدة . فقد وقفت جريدة المزيد ترد على دعوة كل من ويلكوكس وويلمور ووقفت مجلة الهلال لجورجى زيدان ، ومجلة الجامعة لفرح أنطون ضد الدعوة التجزئية حيث إنها كانت ستنتهى بفرض اللغة الإنجليزية فى مجالات التعليم ، ونجحت هذه الدعوة لتصبح الإنجليزية لغة التعليم فى كل المواد ، والعربية مجرد مادة دراسية وظل الصراع من أجل تعريب التعليم قائماً إلى أن أذعن الإنجليز لتعريب لغة التدريس سنة ١٩٠٧

إن دعوى صعوبة الفصحى دعوى مردودة ؛ لأن مناقشة الأمر بنضج ووعى يدعم ذلك ؛ لأن المستوى الصوابى المطلوب بالنسبة للمتحدث باللغة لا ينطبق تماماً على ما يسميه اللغويون المحدثون « الصوغ القياسى analogic creation » لأن الصوغ القياسى يراعى فيه العرف اللغوى الخاص بمعنى : مراعاة القواعد العامة المشهورة فى صياغة الكلام والعبارات ، على حسب نظام اللغة المستعملة فى الأصوات والصيغ وتأليف الكلام . أما المستوى الصوابى فلا بد لتحقيقه من مراعاة أسس أخرى مع ذلك ، أهمها : العرف الاجتماعى والبيئة والعصر ، واعتبار التطور فى اللغة .

إن المحدثين والأقدمين يقرون أن استخدام اللغة يتدرج فى المستويات الآتية : الإفهام - الصحة - البلاغة ^(٢) . فالإفهام أن تصل اللغة إلى الأفهام فى أدنى درجاته ، حيث لا يراعى عرف اللغة المستعملة ، وما يتقرر تبعاً لذلك من نظام فى الأصوات والصيغ والتراكيب . وهذا المستوى « الإفهام » يوجد فى استعمال الأجانب للغة التى تحقق مجرد الإفهام .

أما الصحة كما يقول « جسيبر سن » فإنها فى درجة أعلى من كونها أداة للإفهام ، فلا تتحقق الصحة إلا بمراعاة أسس المستوى الصوابى .

(١) صاحب هذا رأى (سلامة موسى) .

(٢) المستوى اللغوى للفصحى واللهجات . د . محمد عيد نشر عالم الكتب . القاهرة ١٩٨١

وأما البلاغة أو الفنية ، فإنها تتجاوز الصحة إلى جمال التعبير . يقول جرای Gray ^(١) : يمكن تعريف الأدب بأنه استعمال الكلمات استعمالاً صحيحاً ، تصور به الظلال الدقيقة للمعاني التي يرغب الكاتب في إثارتها . كلما كان الكاتب أكثر تمكناً من لغته التي يستعملها ، كان أقدر على اختبار الأسلوب الأحسن .

ولكل شخص أن يختار ما يناسبه من الاستخدامات الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها . إذا أردت أن تتعامل مع سائق التاكسي فاللغة تتيح لك الإفهام . وإذا أردت أن تتناقش كتابة أو خطابة مع عمالك ومروسيك في المصنع فتلقى الصحة . أما إذا أردت أن تكون أديبا فعليك أن تحقق الجانب البلاغي . إن الفصحى ليست من الهوان لدرجة إهمالها ، ومن أسقطها من حسابه فعليه ألا يمارس الكتابة أو التدريس أو الإبداع الأدبي بها .

★ أهمية اللغة العربية بين اللغات المعاصرة :

إن ثمة مجموعة من المعايير التي توضح مكانة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة ، وتضعها في مكانها الصحيح من الأهمية . إن عالمية اللغة تكتسب من خلال كونها تملك انتشاراً جغرافياً واسعاً ، وليس المقصود بهذا الانتشار المكان في حد ذاته ، بل عدد مستخدميها ومكانة هؤلاء في حياتنا المعاصرة . إن المنطقة اللغوية العربية تمتد لتشمل منطقة كبيرة من العالم ، تضم النصف الشمالي من أفريقيا والقسم الغربي من آسيا . إنها اللغة الأم لدى حوالي ١٣٩ مليوناً من أبناء دول الجامعة العربية البالغ عددهم أكثر من مائتي مليون . فالجماعات غير العربية في أرجاء الوطن العربي تصل إلى أحد عشر مليوناً أو تزيد . وتعد اللغة العربية السادسة في العالم المعاصر . تأتي بعد الصينية والإنجليزية والهندية والأردية والأسبانية والروسية . ووفقاً لهذا المعيار فإنها من أكثر اللغات انتشاراً في القارة الأفريقية وفي غرب آسيا ولهذا فإن مصر تعنى بإرسال المعلمين إلى هاتين القارتين حفاظاً على مكانة العربية بين الناطقين بها في هاتين القارتين . كما أن اللغة العربية ذات انتشار

(١) Foundations of language P. 140

نسبى فى عدد من الدول خارج نطاق الجامعة العربية . وهناك دولتان تعد العربية فيهما أكثر الملكات الوطنية انتشاراً وهما : تشاد ومالطة . إن ٦٠ ٪ من مواطنى تشاد يستخدمون اللغة العربية باعتبارها اللغة الأم . أما باقى السكان فيتعاملون فى حياتهم اليومية بأكثر من عشر لغات أخرى ، وبهذا تعد اللغة العربية أكثر اللغات الوطنية انتشاراً فى تشاد . أما جزيرة مالطة فإن لغة الحديث فيها هى إحدى اللهجات العربية ، حيث لم تأخذ الفصحى مكانها لأنها ليست لغة الدين وليست لغة الثقافة ، ومن ثم فإنها ليست اللغة الرسمية .

هذا إلى جانب مستويات مختلفة من الاستخدام اللغوى العربى فى كل من . الصومال والنيجر ومالى فى أفريقيا ثم إيران وتركيا وأفغانستان وأزبكستان فى آسيا .

إن اللغة العربية تعد من أهم لغات التعامل فى العالم المعاصر . واللغة العربية لغة تعامل فى كل المناطق الواقعة داخل الدول العربية ولها لغات أخرى غير العربية . ثم إن المعيار الثقافى للغة العربية هو الذى يحدد درجة عالميتها ، وهو معيار حاسم لتحديد مكانة أى لغة من اللغات الدولية المعاصرة . إن اللغة العربية بالنسبة للمسلمين فى كل أنحاء العالم هى لغة القرآن الكريم والثقافة الإسلامية . واللغة العربية بالنسبة للمهتمين بالحضارة الإسلامية فى أفريقيا وآسيا أهم لغات التراث الإسلامى . ومن هذين الجانبين احتفظت العربية بوجودها بين مواد التعليم فى أكثر أنحاء العالم الإسلامى . إلا أن الاهتمام الجديد باللغة العربية يضيف إلى الجانب الدينى جانب المعاصرة . فاللغة العربية لغة الثقافة والمعرفة فى منطقة مهمة من العالم المعاصر ، وتجربتها فى التنمية موضع اهتمام فى العالم الثالث . والقضايا الفكرية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية فى الدول العربية لا يمكن فهمها أو بحثها إلا بدراسة العربية . ولهذا فإن هناك إقبالأً جديداً على العربية بأبعاد معاصرة .

إن اللغة العربية قادرة على إحداث المعاصرة فى استخداماتها ، أى التعبير المتجدد عن الحضارة الحديثة . وقد واجهت لغتنا هذا الأمر فى بداية الربع الثانى من

القرن التاسع عشر ، أى قبل عصر الاستعمار الأوربي للمنطقة العربية بأكثر من نصف قرن . ولقد تجلّت هذه المواجهة فى مؤلفات رائد الفكر العربى الحديث رفاة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢) وفى كتابات رائد التجديد فى المغرب العربى خير الدين التونسي (١٨٢٢ - ١٨٨٩) ثم إن استخدام اللغة العربية فى المؤتمرات الدولية يؤكد عالميتها إن العالم لم يعرف منظمات دولية مثل تلك التى عرفها القرن العشرون إن وسائل المواصلات جعلت من العالم منطقة متكاملة متداخلة المصالح . ثم إن الانتشار الإعلامى وثورته جعلاً من العالم كله قرية إعلامية واحدة . ولكثرة المؤتمرات ظهرت ضرورات لغوية جديدة ، إذ إنه ليس من المعقول استخدام كل لغات الأرض ، والمعقول اختيار عدد محدود من هذه اللغات لتصبح لغات المحافل الدولية التى تخاطب الرقع الجغرافية التى تنطق بها . لقد دخلت العربية لغة عمل دولية فى اليونسكو سنة ١٩٦٩ ثم فى الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ . وتستخدم أيضاً فى كل المنظمات الدولية الأفريقية والأفروآسيوية ؛ ولذا نقول إن اللغة العربية تعد من أكثر اللغات استخداماً فى المحافل الدولية .

لقد زاد الاهتمام باللغة العربية فى السنوات الماضية زيادة ملحوظة ، ويمكن أن نلاحظ ذلك على دول كثيرة فى كل من أفريقيا وآسيا ، بل أيضاً - فى كل من أوروبا وأمريكا ، حيث إنها أخذت تستعيد مكانتها فى التعليم العام فى عدة دول . وإذا كانت المدارس الإسلامية المنتشرة فى مختلف الدول الإسلامية فى أفريقيا وآسيا تهتم منذ قرون بتعليم العربية فى إطار تعليم القرآن الكريم والعبادات ، فإن الاهتمام الجديد بهذه اللغة ظهر فى تعليمها بالمدارس الحكومية ، بل إنه زادت العناية به ؛ ففى دولة الباكستان كانت العربية مادة دراسية فى حوالى سبعة آلاف مدرسة حكومية ، وذلك ضمن مجموعة مواد اختيارية . وفى يناير ١٩٧٨ قررت حكومة الباكستان تعليم اللغة العربية فى مدارسها كمادة إجبارية ، وهو اتجاه يعيد للغة العربية مكانتها فى شبه القارة الهندية .

هذا إلى جانب أن للدراسات العربية فى أقسام الدراسات الشرقية بالجامعات

الأوروبية تقاليد عريقة . والاتجاه الجديد فى عدة دول أوروبية - وفى مقدمتها فرنسا وإيطاليا - يجعل من الممكن تدريس مادة اللغة العربية فى المدارس المتوسطة والعليا . وهناك عدة دول أوروبية وعدة ولايات أمريكية وكذلك فى أستراليا ، يسمح فيها النظام التعليمى بمواد إضافية يترك للمدرسة حرية اختيارها ، ويمكن أن تكون اللغة العربية إحدى هذه المواد . وهناك أمل فى أن تصبح اللغة العربية من بين اللغات الحية التى يقبل عليها التلاميذ فى مرحلة التعليم قبل الجامعى .

اللغة العربية وتحديات العصر :

أصبح السفر أمراً ميسوراً ، ولم تعد المسافات عقبة بين البشر فى أرجاء المعمورة وذلك فى ظل تطور نظم الاتصال ، واستغلال الفضاء ولاشك أن توازن الفرد ، واستقرار المؤسسات ، والتقاليد الاجتماعية والقيم المحفوظة من التراث القومى ، كل ذلك يتعرض للأهتزازات والتبدلات ، سواء أكانت مضرّة أم نافعة ، مما يتطلب من الإنسان قدرة فائقة على التكيف مع البيئة الجديدة التى ينتقل إليها ^(١) .

إن هذه البيئة الجديدة ينتقل إليها الإنسان وهو مقيم فى مكانه ، وداخل وطنه . إن البيئة أصبحت ترتبط بمجال أوسع من ذى قبل . ولكن تبقى ترجمة معطيات هذه البيئة الجديدة بمسميات وطنية ، حتى لا يفجأنا الزحف اللغوى الخارجى بعد أن تتغير مسميات كثير من أشياء العصر الوافدة . إنها مهمة صعبة ، ورصد هذه المتغيرات أمر أصعب . ومن هنا وجب أن تركز المدرسة المصرية على الاهتمام باللغة العربية لتتلقف من مجامعنا اللغوية والعلمية المصطلحات الجديدة ومرادفاتها أو منحوتها حتى يظل التجديد اللغوى المطلوب مواكباً لحركة العلم المعاصر . إن معرفة الإنسان بأسرار الكون ، وازدياد سيطرته على الطبيعة بلغا فى السنوات العشرين الماضية حداً مذهلاً ، ولد علوماً جديدة منها على سبيل المثال « الهندسة الوراثية » مما ستكون له آثاره المذهلة على الإنسان والطبيعة . وتفجرت على إثر ذلك أيضاً - معارف متراكمة

(١) استراتيجية تطوير التعليم فى مصر د . أحمد فتحى سرور ص ٦٥ .

وتصورات حديثة ستولد - بلاشك - خيالاً جديداً لدى الأجيال ، بل بلاغة جديدة تتناسب مع هذه المعارف المتزايدة .

وفى خضم هذه المعارف والمعلومات أصبحت دراسة اللغات ضرورة ملحة ، ولكن لابد أن يتناغم مع ضرورتها التصفية المطلوبة فى المناهج ، تصفية لا تخلع ثوب التراث ، ولكن تجدد ، وتضيف إليه . ولعمري إنها مهمة صعبة !! لقد عاشت مصر عصر القومية العربية فى الخمسينات ، وهو أمر لا يتعارض مع الامتداد الفكرى المعاصر ، لأن الأمة العربية - وفى مقدمتها مصر - لا يمكن أن تعيش منعزلة عن المجتمع الدولى والحضارة المعاصرة ، فالأمر يقتضى انفتاحاً على الثقافات الأخرى ، لأن الاختراعات الحديثة ، والاتجاهات الفكرية المصاحبة تفرض نفسها علينا دون اختيار .

وهنا أجدنى مضطراً للحديث عن اتجاهين فى التعليم هما :

- التعليم الفنى . - مدارس اللغات .

أما التعليم الفنى فإنه ضرورة كما سبق أن أشرنا لمواجهة ما يفرضه التطور العالمى ، ولمواجهات احتياجات المجتمع بإزاء المتغيرات العلمية والتكنولوجية ، وتأثيرها على مجالات الإنتاج ، والمهن الفنية المطلوبة ، لسد الاحتياجات ومواجهة المتغيرات . أما مدارس اللغات فإنها تشير عدة تساؤلات ترتبط بدءاً بالمسيرة الاجتماعية فى الفترة الزمنية الأخيرة من حركة المجتمع المصرى .. لقد انتقل المجتمع المصرى من الحرب إلى السلام بعد نصر أكتوبر سنة ١٩٧٣ الذى أعاد إلينا كبرياءنا القومى الذى خدش بفعل هزيمة سنة ١٩٦٧ ، وأعاد أيضاً الثقة فى الشخصية المصرية ، والأصالة الحضارية . كما كان من تحركات مجتمعتنا أيضاً الانتقال إلى مرحلة الانفتاح ، ومن التنظيم السياسى الواحد إلى أحزاب متعددة ، ومن التسبب إلى الانضباط والجدية .. كل هذه المتغيرات جعلت المجتمع المصرى فى حالة ترقب كان من نتيجته - رغم الزيادة الرهيبة فى عدد السكان - أن ظهرت رموس أموال جديدة ، لدى مواطنين لم

يكونوا قد نالوا فرصة التعليم - فاتجهوا بقدرة نحو تعليم أولادهم بالمدارس الخاصة ومدارس اللغات ليس بدعوى جدية التعليم بل بسبب داخلي هو المظهرية لأنه لا التقاء هنا بين البيت والمدرسة وهو الأساس الذي تقوم عليه التربية . إذ ماذا يفعل التلميذ بالمواد الدراسية التي يدرسها بالإنجليزية أو الفرنسية في بيت تخلو معارفه منها ؟ بل إننى أمتد بالفكرة وأقول إن الحس الوطنى لا يمتد بالتلميذ إلى أسرته ، لأن ثمة أنفصالاً كبيراً يحدث بين واقعه الاجتماعى فى الأسرة - بعيداً عن القدرة المادية والواقع المدرسى الذى تدعو التربية فى أصولها إلى التلاحم بينه وبين الأسرة ، وبالتالي المجتمع .

ثم إن من مخاطر هذا اللون على اللغة القومية تعدد الثقافات التى يصعب التقاء مشاربها ، وانعكاس ذلك على الشعور بالانتماء ، وتصعيد الاتجاه نحو الاغتراب (١) هذا إلى أن هذه المدارس لم تبد اهتماماً بالتعليم الفنى رغم شدة حاجة البلاد إليه (تقرير المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا . الدورة الحادية عشرة سبتمبر ٨٣ - يونيو ١٩٨٤ الكتاب رقم ١٧١ ص ٤٠ - ٤١ .

أليس ثمة تشابه بين ماورد فى ثنايا هذا البحث عن محاولة لغات بديلة مصارعة اللغة العربية وبين ما يحدث الآن فى مدارس اللغات حيث تدرس معظم المواد بلغة أجنبية - لا ننكر جدوى معرفتها ولكننا ننكر حلولها محل اللغة الوطنية ، اللغة العربية .

إن اللغة العربية داخلية فى نسيج كل منا ، فهى حياتنا وأحلامنا وممارسة الأنشطة المدرسية - فى ظل سيطرة لغة أجنبية - يمكن أن تتعثر . إن النشاط الأدبى واللغوى متمثلاً فى جماعات الشعر والقصة والمقال والخطابة ، أو ما يسمى بالنشاط الفنى المتمثل فى جماعات الرسم والتصوير والنحت والموسيقى والتمثيل والنشاط العلمى المتمثل فى الجمعيات العلمية والجماعات الاستكشافية والرحلات العلمية .. إلخ - كلها وسائل لخلق مواطن يفكر من خلال مكونات شخصيته فى وطن يحتاج إليه

(١) استراتيجية تطوير التعليم فى مصر د . أحمد فتحى سرور . هامش ص ٦٨ .

متحدثاً بالعربية أصلاً وبغيرها أيضاً . مفكراً بالعربية ، مرتبطاً بها وبتراثها . بعيداً
عن المسميات الشكلية لمدارس اللغات أو شهادات ال G . C . E أو G . C . S . E .

إن محاولاتنا نحو إقامة المجتمع المنتج الذى يحقق التنمية الاقتصادية من خلال
كوادر بشرية قادرة على تحقيق التنمية - تحتاج إلى كوادر متخصصة تنهض إلى
ملاحقة تكنولوجيا العصر محافظة على وجهها العربى المصرى من خلال اللغة العربية
، أوثق وشيجة بين أبناء هذا الوطن ، وأبناء الأمة العربية كلها .
★ توجه . . وأمل :

ونظرة متأنية إلى الفترة الأخيرة فى مسيرة التعليم فى مصر تكشف لنا عن
الجهد الخلاق الذى يبذله الأستاذ الدكتور حسين كامل بهاء الدين لتطوير التعليم
وتحويل القضية إلى قصيدة قومية ترعاها الرؤية الثاقبة للقيادة السياسية .
وقد أشار إلى ذلك الكتاب الذى أصدرته وزارة التعليم ١٩٩٢ وما تلا ذلك من
إصدارات كشفت عن مدة الاهتمام باللغة العربية حيث ورد فى ص ٥٦ من كتاب
مبارك والتعليم (إصدار ١٩٩٢) تحت عنوان « الاهتمام باللغات » أنه يجب
الاهتمام بلغتنا القومية ، ويجب أن يتعود الأطفال على التحدث بلغة عربية سليمة ،
ويجب أن يتعودوا على التفكير بلغة عربية سليمة أيضاً . وفى الوقت ذاته يجب أن
يتم تسليحهم باللغات الأجنبية ، فلم يعد ممكناً فى عالمنا ، فى ظل التقدم الهائل
الذى يحدث من حولنا أن ننزل عن الآخرين .

إن الاهتمام بعلوم المستقبل مطلوب ، ولكن المطلوب معه أيضاً أن يتناغم ذلك
مع تطوع الفكر المستقبلى للغة القومية جفاظاً على الهوية العربية التى تهتم بدراسة
تاريخنا الفكرى والثقافى من خلال لغتنا ، بل إننا يجب أن نسلح أبناءنا بقدرة لغوية
عربية سليمة للدخول إلى عالم التكنولوجيا حتى تصبح اللغة سلوكاً ، تنمو من خلاله
المواهب التى قد هذا الوطن بكوادر تصنع المستقبل وما أحسبنا إلا فاعلين إن شاء الله
عندما تصدق النية ، ويعود كل منا إلى ضميره يستحشه على الحفاظ على هوية
الإنسان المصرى ، الذى تنساب قدراته عبر قنوات طبيعية إلى أرجاء الأمة العربية .